

Fifth year / Wednesday / 30 April 2014 / Issue No. 1474

مضامينهما خطيرة وأسلوبهما اللغويّ مختلف عمّا عرّف به الأمير

حفيدة عبد القادر الجزائري تبرئه من كتابين نسبا إليه زوراً

الأمير عبد القادر في كتابة الشعر الذي عرف عنه واشتهر به.

ويضمّ كتاب البراءة الصادر لدى دار «ابن زيدون» في دمشق صوراً لوثائق وتقارير خبراء فنيين وخبراء خطوط، إضافة الى اعترافات وأدلة وبراهين لكتاب عاصروا الأمير مثل الشيخ عبد الرزاق البيطار كاحد كتّاب التراجم في دمشق، وما ذكره جواد المرابط عن الشخصيات التي كانت تحضر مجالس الأمير مثل البيطار ومحمد الخاني والطناوي وغيرهم ممن طلبوا من الأمير أن يسمح لهم بتدوين أحاديثه في دنواته.

يقول الخبير المحلف هشام الغراوي، من وزارة العدل السورية، عام 1999 في تقرير فني بخط يده نشره



الكتاب نتيجة جهود المؤلّفة بحدّاً وتدقيقاً للحصول على معلومات موثقة وأدلة دامغة تدحض محاولات تشويه فكر الأمير عبد القادر الجزائري، فكان لا بد من إطلاع الناس على المعلومات التي أصبحت بحوزتها واعتبرتها أمانة في عنقها، كونها مواطنة عريضة جزائرية وإن كانت تقبع في دمشق مثل جدّها المجاهد. وتقدّم الأميرة بديعة حصيلة معلوماّتها إلى كل من سمع بكتاب «المواقف» الذي يضمّ أفكارا ليست للأمير إنما لبعض المشايخ الذين أرادوا تعظيم الأمير في حياة ابنه محمد باشا فجمعوا ونقلوا وأقواّ لغيره ممن أصبحوا مطالبين للأمير، وضموها إلى أجوبة كان يقدمها إلى السائلين فلنا منهم أنهم يفعلون خيراً مع الأمير الذي أحبوه وأرادوا تكريمه بكتاب ضخم بقرائة.

خلال عملية البحث، عثرت الكاتبة على نسخة مخطوطة من كتاب «المواقف» في قسم المخطوطات النادرة في مكتبة الأسد في دمشق، بخط فارسي يرجع تاريخ كتابتها إلى عام 1307 هجرية، أي بعد سبع سنوات من وفاة الأمير عبد القادر الذي كان خطه مغربياً. كما توجد نسخة أخرى كتبت بخط نسخي جميل، لكن تاريخ كتابتها وكاتبتها مجهولان ولا يوجد ما يشير إلى أنها كتبت في دمشق، أي لا يوجد مخطوط بخط الأمير عبد القادر، ومع ذلك اعتبر كتاب المواقف في الجزائر إنتاجاً فكرياً للأمير عبد القادر، إذ قدم إلى المكتبات هناك بشكل مخطوط على أنه بخط الأمير عبد القادر.

تأسف المؤلّفة لكون هذا المخطوط الذي يحمل مضامين خطيرة ترجع إلى عدّة لغات وقيل على أنه فخر الأمير، ونوقشت فيه أبيات شعرية صوفية من دون التشكيك فيها، رغم أن الصديق ماركيز اكتتب به لا يمت إلى أسلوب

صورة من كتاب «المواقف»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

غياي غبريال غارسيا ماركيز الذي شغل العالم قبل بضعة أيام، لا أهمية موقعه الأدبي والروائيّ والإنسانيّ، يعيننا نحن أيضاً في ثقافة «البناء» وكنّا خصصنا صفحة كاملة لغيابه وتناعب اليوم تحيّة الغياب عبر نشر أجزاء من حوارات الكاتب الكولومبي بيلنيو ميندوزا، صديق ماركيز، العديدة والطويلة (نقلها إبراهيم وطفى إلى العربية)، ويروي فيها الكاتب الكبير الغائب كيف يكتب ويستلهم رواياته وقصصه وشخصوه، وبين تأثر أدبياً، وأمرأا كثيرة منقرقة. وننشر هذه الأجزاء في حلقتين، الأخيرة منهما اليوم.

بيندوزا: إن كنت تتحدث عن ذلك، لكنت لا تعطى أحداً البتة ما تكتبه لكي يقرأه.
ماركيز: كلا، البتة. إنني أؤمن بالخرافات تقريباً، إذ أرى أن المرء وحيد مهما أنشأه العمل الأدبي، مثل راكب سفينة عثرت وألقت به وسط البحر. بل، إنها المهمة الأكثر عرلة في العالم، ولا أحد يستطيع أن يساعده المرء في ما يكتبه.
ميندوزا: ما هو المكان المثالي بالنسبة إليك للكتابة؟
ماركيز: قلت ذلك مرّات عديدة. صباحاً، على جزيرة مهجورة، ومساءً في مدينة كبرى. في الصباح أحتاج إلى هدوء، وعند المساء إلى بعض الضخ والاصطداد خلص لكي أتعامل ومعجب، إنني في حاجة دوماً إلى الإصغاء بالناس في الشارع ومعجب أن أطلع على كل ما هو جديد. ذلك كله مطابق لما قرصته وليم فوكنر بملاحظته أن بيت البغاء هو المكان الأكثر ملاءمة للكاتب، إذ أن اللهوه يسود هناك كلياً في ساعات الصباح، ويحتفل المرء عند المساء.

ميندوزا: أنت تتحدث عن الجانب الحرفي للكتابة. هل يمكنك أن تقول لي من ساعدك في فترة تعلّمك الطويلة؟
ماركيز: جدتي في المقام الأول. كانت تروي لي الخوارق من دون أن تحذر سكتاً، كأنها شاهدتها لتوها. اكتشفت في هذه الأثناء أن هذا التصميم وغنى الصور هو تماماً ما كان يجعل قصصها معقولة إلى هذه الدرجة. ولدى كتابتي «مائة عام من العزلة»، استحدثت طريقة جدتي.
ميندوزا: هل استخدمت طرقها كتاباً؟
ماركيز: كلا، من خلال كاتفا الذي روى قصصه بالألمانية على طريقة جدتي نفسها. عندما قرأت «المسح»، وكأنت في السابعة عشرة من عمري، امتدّيت إلى أن أصبح كاتباً. رأيت أن كان ممكناً أن يلقى غريفوز ساما ذات صباح ويجد نفسه متحولاً من قرأته إلى حشرة ضخمة، ففكرت: «لم أكن أدري أنه في وسع المرء أن يفعل ذلك، لكن عندما يكون مثل ذلك أمرًا ممكنًا، فإن الكتابة تهتني إذن».

ميندوزا: ماذا لفت انتباهك بشكل خاص هنا؟ هل حرية المرء في ابتداع كل ما يشاء؟

ماركيز: أنت ركت عبارة أن نغمة في الأدب إمكانيات أخرى أكثر من الإمكانيات العقلانيّة والأكاديمية جدًا التي كنت قد تعرفت إليها حتى ذلك الحين في الكتب المدرسية. كان الأمر كأنني تخلصت من حزام عنق. لكنني اكتشفت مع الزمن أنه لا يمكن للمرء أن يتدعج ويتخيل كل ما تتزج نفسه إليه، ولا تعرّض للكدب. والكدب في الأدب أكثر فداحة من الكذب في الحياة الحقيقية. ثمّة قوانين رغم ما يبدو من اعتباطية. مسيحيج أنه يمكن للمرء أن يخلع ورقة التوت عن العقلانيّة، ولكن فقط عندما لا يقع المرء في الفوضى واللادعلائيّة التامة.
ميندوزا: في الخيال.
ماركيز: بلى، في الخيال.
ميندوزا: لماذا تستخذ به؟
ماركيز: لأنني أؤمن بأن المخيلة هي مجرد أداة لإبراز الواقع، فالواقع هو في نهاية الأمر، ودوماً، مصدر الفن والخيال، أي الاختلاق الظاهر على غرار وALT ديزني، من دون أي استناد إلى الواقع، هو أيسع ما يوجد. ما زلت أنكر أنني أردت ذات مرّة أن أكتب كتابا يحوي قصصا للأطفال وأرسلت لك كعينة قصة «بحر الزمن الضائع».. وبصراحةك المعهودة اكتب لي أن القصة لم تعجبك وإن السبب يعود إلى قصورك، إذ لا تستطيع أن تفعل شيئا بالخيال. لكن الاعتراض كان اعتراضا قاتلا بالنسبة إليّ، فالأطفال أيضا لا يعجبهم الخيال، أما ما يلقي إعجابهم بالطبع فهو قدرة التخيل. والفرق بين الامرين مثل الفرق بين إنسان ودمية تخرج الكلام من دون تحريك الفم.

ميندوزا: من ساعدك من الكتاب الآخرين، باستثناء كافكا، لتعلم الحرقة وأفانيتها؟
ماركيز: همثغواي.
ميندوزا: الذي لا تعتبره كاتباً وروائياً كبيراً.
ماركيز: الذي لا اعتبره كاتباً وروائياً كبيراً، بل قاصاً فذاً. نصبحته أن القصة، مثل جبل جليد عائم، يجب أن تحتمل أولا الحجفة الذي لا يري، من التحريات والتأمالت والمعادن التي جمعها المرء، والتي لم تستخدم في القصة على نحو مباشر. بل، يمكن للمرء أن يتعلم الكثير من همثغواي، حتى كيف ميندوزا: لماذا تستخذ به؟
ماركيز: همثغواي.

ميندوزا: الذي لا تعتبره كاتباً وروائياً كبيراً.

ماركيز: الذي لا اعتبره كاتباً وروائياً كبيراً، بل قاصاً فذاً. نصبحته أن القصة، مثل جبل جليد عائم، يجب أن تحتمل أولا الحجفة الذي لا يري، من التحريات والتأمالت والمعادن التي جمعها المرء، والتي لم تستخدم في القصة على نحو مباشر. بل، يمكن للمرء أن يتعلم الكثير من همثغواي، حتى كيف

البناء

صورة من كتاب «المواقف»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

الكتاب: «لا يجوز نسبة الوفيقة التي نشرتها مجلة «المسالك» الجزائرية إلى الأمير عبد القادر الجزائري إذ تبنى بالخبرة الفنية أنها ليست بخطه ولا يجوز نسبتها إليه لما فيها من كفر يستحيل صدوره عن عالم جليل مثله، ولا يجوز السكوت عنها وإبقاؤها في ترانثا الفكرى».

خصصت الأميرة بديعة الفصل الثالث من الكتاب لعرض نماذج من مضامين كتاب المواقف والرد عليها بعد دراستها مشيرة إلى أن هدفها ليس تبرئة الأمير عبد القادر فحسب، إنما الدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف والقرآن الكريم والشريعة المسماة التي يشكك فيها كتّاب المواقف. كما خصصت جزءاً للتعريف بشخصية الأمير المجاهد الذي أصبح على مر الأيام شخصية عالمية، إلى

كونه رائد المقاومة الجزائرية إذ نظم جيشاً ووضع له قوانين ووقف في وجه دولة كبرى بحجم فرنسا سبعة عشر عاما لم يستسلم خلالها بيد أنه انتصر في المعارك كلها التي قادها بنفسه، ولكن فرنسا عثرت به، اختطفته، وسجنته خمس سنوات، ودخل دمشق كاحد الفاتحين، على ما ذكر المؤرخون.

في حديثها عن سيرة الأمير عبد القادر وجهاده ضد المستعمر تتطرق الكاتبة إلى كلمة الجهاد التي تعني المقاومة ضد الأعداء، وذلك ما يربع الغرب ويقلقه، مشيرة الى ما قاله دك تشيتيني نائب الرئيس الأميركي عام 2002 من أن الولايات المتحدة تخطط للقضاء على استراتيجية الجهاد لدى المسلمين. ويا للأسف، استطاعت قيادة الصهيونية العالمية ابتكار طريقة شيطانية خبيثة لقب مفاهيم الجهاد وجعلها عمليات إجرامية بشعة تثير الاشتمزاز فجنّدوا المرتزقة وأرسلوهم إلى سورية التي كانت هدفهم هذه المرة تحت ما يسمى «الجهاد»، لأنها دولة مقاومة ترفض الاعتراف ب«إسرائيل».

كما تتطرق حفيدّة المجاهد الكبير إلى كتاب آخر عنوانه «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» كتب عليه اسم الأمير عبد القادر على أنه ألّفه في دمشق عام 1853 علما أنه كان في ذلك الوقت في بروسة في تركيا. إضافة إلى أن الأفكار التي تضمنها الكتاب ليست أفكار الأمير عبد القادر، كما أن الدكتور ممدوح حقي الذي حقق الكتاب في القرن العشرين لم يستند إلى المخطوطات في تحقيقه.

خلال بحث الكاتبة عن المخطوطات في المكتبة الظاهرية ومكتبة الأسد الوطنية والمركز الثقافي الفرنسي في دمشق، عثرت على أسماء كتب أخرى نسبت إلى غير مؤلفيها، ومنها على سبيل المثال كتاب «العيون والحدائق في الحقائق» لمؤلف مجهول، كذلك كتاب «مختصر ذكر تاريخ الامويين» لمؤلف مجهول أيضا. وتوصي الأميرة بديعة في الختام بجمع نسخ الكتابين وإحراقها، راجية أن تقوم مؤسسة الأمير عبد القادر في الجزائر بهذه المهمة، وضرورة نفي نسب هذه الكتب إلى الأمير في جميع وسائل الإعلام، ليس خدمة لجهدا لأنه لا يحتاجها، بل خدمة للحقيقة والدين والإمة.

صورة من كتاب «المواقف»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

صورة من كتاب «مذكرى العاقل»

الغائب الكبير ماركيز متحدثاً إلى صديقه الأديب ميندوزا: المخيلة مجرد أداة لإبراز الواقع

 2 ‏

في الكتاب، زرعت بضع نباتات ووضعت رائحة معينة، ثم تمكنت من جعل القارئ يشعر بحرارة المدينة. أنجزت الكتاب من دون عوائق أخرى.

ميندوزا: ماذا يحدث عندما تنتهي من كتابة كتاب؟
ماركيز: يزول اهتمامي إلى الأبد. يصبح «أسدا ميتا»، في تعبير همثغواي.

ميندوزا: قلت إن كل رواية إنما هي نقل شعري للواقع. هل يمكنك إيضاح هذه الوصفة؟

ماركيز: بلى، أعتقد أن الرواية هي نقل للواقع مكتوب بالشيفرة: نوع من الأجيبة العالمية. إن الواقع في الرواية هو غير الواقع في الحياة، مع أنه يستند إليه مطلقا تستند إليه الإحلام.

ميندوزا: إن معالجة الواقع في كتبك، خاصة في «مئة عام من العزلة» وفي «حريف البطريق» دعيت «واقعية سحرية». ثمّة انطباع لدي بأن قراء الأوروبيين غالبا ما يلاحظون جدية نانا إلى الفراش والتحدث طوال ساعاتين.

ميندوزا: ما هو الإلهام بالنسبة إليك؟ هل ثمّة شيء كهذا؟
ماركيز: أساء الرومانسيون إلى سمعة الكلمة، لا أقم تحت هذه الكلمة حالة النعمة ولا وحيا إلهيا، إنما تصالعا مع الموضوع، من خلال الإصرار والقدرة. عندما تريد أن تكتب شيئا بنشا بينك وبين الموضوع شيء ما مثل التوتّر المتبادل. أنت تغتير الموضوع، والموضوع يثيرك. ثم تأتي لحظة تنهار فيها كل العوائق وتتضح جانبا سائر الزماعات وتحدث للمرء أمور لم يكن ليحلم بها. في هذه اللحظة لا شيء في الحياة أفضل من الكتابة. هذا ما أسميه الإلهام.

ميندوزا: هل يحدث لك أحيانا، في سياق كتاب ما، أن تفقد هذه الحالة؟

ماركيز: بلى، ثم أعيد التفكير في كل شيء من البداية. هذه هي الأوقات التي أقوم فيها بإصلاح جميع الأقفال والأزرار في البيت، بالمفك، وبدون الأيواب باللون الأخضر، إذ أن العمل اليدوي يسعد أحيانا في إزالة الخوف من الواقع.

ميندوزا: أين يمكن أن يكمن الخطأ؟
ماركيز: غالبا ما تكون مغلظة بنبوية.
ميندوزا: هل يمكن لمثل هذه المغلظة أن تكون مغلظة خطيرة؟

ماركيز: خطيرة إلى درجة أضطر معها إلى البدء من جديد في كل شيء. عام 1962 توقفت عن العمل في «حريف البطريق» في المكسيك عندما كانت نحو ثلاثمائة صفحة جاهزة، وكل ما أذقته منها كان اسم الشخصية الرئيسية. عام 1968 بدأ العمل من جديد في برشلونة، وعملت بها كثيرا طوال ستة أشهر، ثم توقفت لأن بعض النواحي الأخلاقية للشخصية الرئيسية، وهي الديكتاتور طاعن في السن، لم تكن واضحة تماما. بعد نحو عامين اشتريت كتابا عن الصيد في أفريقيا لأجل مقدمته التي كتبها همثغواي. لم تكن المقدمة تستحق الجهد، لكنني قرأت بعدها الفصل عن الغلبة فوجدت هنا الحل الروائي. إذ كان في الإمكان توضيح أخلاق الديكتاتور على نحو جيد بناء على بعض عادات القبيلة.

ميندوزا: هل لقت مصاعب أخرى غير المصاعب التي كانت تتعلق ببيئة الشخصية الرئيسية ونفسيّتها؟
ماركيز: بلى، عند نقطة عرفت أمرا خطيرا: لم أستطع أن أجعل الطقس حارا في مدينة الكاب. كان هذا أمرا سيئا، فأقبلت كتابا من مدن الكاريبي وكان لا بد من أن تكون شديدة الحرارة.

ميندوزا: كيف كان الحال؟
ماركيز: لأن للجوار في اللغة الإسبانية وقعا خاطئا، قلت دائما إن هناك فرقا كبيرا في هذه اللغة بين الكلام المنطوق والكلام المكتوب. إن حوارا بالإسبانية جيدا في الحياة الحقيقية لا يوضع بالضرورة جيدا في الرواية. لذا قبلتا ما

ميندوزا: لم ليس للحوار في كتب سوى أهمية ضئيلة؟

ماركيز: لأن للحوار في اللغة الإسبانية وقعا خاطئا، قلت دائما إن هناك فرقا كبيرا في هذه اللغة بين الكلام المنطوق والكلام المكتوب. إن حوارا بالإسبانية جيدا في الحياة الحقيقية لا يوضع بالضرورة جيدا في الرواية. لذا قبلتا ما

ماركيز: لأنني أؤمن بأن المخيلة هي مجرد أداة لإبراز الواقع، فالواقع هو في نهاية الأمر، ودوماً، مصدر الفن والخيال، أي الاختلاق الظاهر على غرار وALT ديزني، من دون أي استناد إلى الواقع، هو أيسع ما يوجد. ما زلت أنكر أنني أردت ذات مرّة أن أكتب كتابا يحوي قصصا للأطفال وأرسلت لك كعينة قصة «بحر الزمن الضائع».. وبصراحةك المعهودة اكتب لي أن القصة لم تعجبك وإن السبب يعود إلى قصورك، إذ لا تستطيع أن تفعل شيئا بالخيال. لكن الاعتراض كان اعتراضا قاتلا بالنسبة إليّ، فالأطفال أيضا لا يعجبهم الخيال، أما ما يلقي إعجابهم بالطبع فهو قدرة التخيل. والفرق بين الامرين مثل الفرق بين إنسان ودمية تخرج الكلام من دون تحريك الفم.

ميندوزا: من ساعدك من الكتاب الآخرين، باستثناء كافكا، لتعلم الحرقة وأفانيتها؟
ماركيز: همثغواي.

ميندوزا: الذي لا تعتبره كاتباً وروائياً كبيراً.

ماركيز: الذي لا اعتبره كاتباً وروائياً كبيراً، بل قاصاً فذاً. نصبحته أن القصة، مثل جبل جليد عائم، يجب أن تحتمل أولا الحجفة الذي لا يري، من التحريات والتأمالت والمعادن التي جمعها المرء، والتي لم تستخدم في القصة على نحو مباشر. بل، يمكن للمرء أن يتعلم الكثير من همثغواي، حتى كيف

ثقافة

الخبير اللغويّ

الخبير اللغويّ

معرض «سورية في عيوننا»

لوحات لأطفال في طرطوس



أكثر من ثلاثة آلاف لوحة رسمها مئة طفل أعضاء معرض «سورية في عيوننا» للفن التشكيلي الذي افتتح في صالة طرطوس القديمة للمعارض وتقيمه مديريتا الثقافة والتربية ومجلس مدينة طرطوس.
الفنانة التشكيلية تمام مقدم، المشرفة على المعرض، توضح أن المعرض الذي يستمر على مدى أسبوع هو فئرة هو نمرة ثلاث سنوات من العمل وتدريب الأطفال على مختلف تقنيات الرسم، يتضمن أنواعا عديدة من اللوحات بينها الزيتية والمائية والرسوم بالألوان الخشبية والرصاص والفحم وتقنية الضغط على النحاس مشيرة إلى أن كل طفل شارك في 12 لوحة على الأقل.

تلقت المقدم، التي تشارك في المعرض بـ 23 لوحة زيتية ركزت فيها على ملاحح الوجه البشري وخاصة العيون، على اهتمام العديد الأكبر من الأطفال بتصوير جوانب مختلفة من الأزمة في سورية إذ تتميز الطفل بحساسية خاصة حبال مثل هذه الحوادث، ما يمكنه من تجسيدها ببساطة وبراعة، مبيئة أن العديد من الأطفال اهتموا أيضا بتصوير الطبيعة والحيوانات كجزء محبب من عالمهم.

أهمية المعرض في تعزيز شعور الطفل بالمحبة والثقة والرضا عن إنجازه، وإحساسه ببرود الأعمال الإيجابية من الزوار إزاء هذا الكم من الألوان والأفكار والخيالات. وتعرب المقدم عن أملها في أن ينثر الاهتمام والرعاية المستمرة لذوي المواهب من الصغار والمباضعين في التأسيس للنجاح لحركة فنية أكثر تميزا على مستوى المحافظة.

الجغرافيا ومتغيرات التاريخ

محاضرة لهماريس في الدار البيضاء

استضاف فريق البحث في لغات وثقافات العالم البيبيري والإيبيري وأميري وفريق البحث في ثقافات البحر الأبيض المتوسط، بالتعاون مع معهد ثيرياتيسس في الدار البيضاء، المؤرخ الإسباني الخبير في العلاقات المغربية الإسبانية فيكتور ليسكانو موراليس، الذي قدم محاضرة في كلية الآداب تحت عنوان «مقاربة إسبوريوغرافية لدراسة العلاقات المغربية الإسبانية».

استهلّت المحاضرة بمداخلة للدكتور الطيب بياض، أستاذ التعليم العالي في كلية عين الشق في الدار البيضاء، وركز في ورقته في البداية، حديثه عن الجغرافيا ومتغيرات التاريخ، الذي يري فيها دورا مركزيا في رسم مسار علاقة مد وجزر بين الجارين المغربي والإسباني، فيضيف بياض في هذا الشأن، فقبل عبور طارق بن زياد نحو الأندلس كانت العلاقة بين ضفتي البوغاز تتفاوت بين التشاز والتوتر حيناً والهدوء وحسن الجوار أحيانا أخرى. ولما صار الوجود العربي الإسلامي في الأندلس حقيقة وواقعاً حضارياً وثقافياً وعمرانياً استمر التوتّر في ظل التعايش، وما إن أفلت شمسين الأندلس حتى صار الوجود الإسباني على الشواطئ المغربية واقعا ملموسا بل ومستمرأ إلى يومنا هذا، منذ احتلال سيرة سنة 1415.

حول العلاقة بين الضفتين يري بياض أنه باستمرار عمليات التمزج في هذه العلاقات بعد طرد المورسكيين واحتلال عدّة فغور، والتراجع عن بعضها بحسب الجغرافيا والسياسات، مرت معركة واد المخازن سنة 1578 من دون تداعبات عميقة على هذه العلاقات، رغم أنها أتاحت للجار الإسباني إعادة توقيع جديد على الخريطة الإيبيرية، لكنها بالنسبة إلى المغرب في علاقتها مع هذا الجار يمكن وصفها بما وصف به قرطاب برودييل معركة لببائتي التي سبقتها بسبع سنوات، أي نصر من دون نتائج.

ثم يعزج الدكتور بياض مرّة أخرى في هذه العلاقات إلى حرب تطوان سنة 1860/1859 التي تؤكّد فيها عمق التعقيدات في هذه العلاقات وتكرس تمثلاً سلبيا ونظرة دونية متبادلة بين الطرفين: فاودونيل راي، بحسب بياض، في «العورو» الشعب الأستب لتفرّج أزمة إسبانيا الداخلية، والإخباريون المغاربة الذين نقلوا أخبار هذه الحرب رأوا أنه من غير المعقول أن يُهزم المغرب أمام الإسبان. ذلك كان انطباع صاحب «مخطوطي مدريد» الوارد عن محمد داود في تاريخ تطوان، وما أكدته السطر في كتابه الحلل الهيمية إذ قال، مشبها هزيمة إسبانيا أمام المغرب في حرب تطوان برجل يتلقى صفعته على خده من امرأة، ونصر الحخيز أشد وطأة (...) كما لو أن ذات سوار لمطمتني.

مع بداية القرن العشرين، يري الدكتور بياض أن المستويات استقامت بين الرباعي المكاتب، اهتماما بالمغرب (فرنسا، إسبانيا، إنكلترا، ألمانيا) عبر محطات واستقرار شمال المغرب وجنوبه ما يشبه التوقيض لإسبانيا بمسميات وأشكال مختلفة لاحتلال بحسب المناطق، ويبقي عنوانه الأبرز التسمي حماية يحتاج إلى تدقيق. الحصيلة بعد هذا المسار الطويل في علاقات الجوار إلى المستوى الاقتصادي، يري الدكتور بياض أنه تمت حيازة مركز الشريك التجاري الأول للمغرب في ظل منافسة حادة على هذا الموقع مع فرنسا، وعلى مستوى الأثارة جرح كيمباوي لم يتدمل بعد في الشمال، وعلى مستوى العلاقات الدولية ترنج لكيان انفصالي أراد أن يخرج فسرا من رحم الاستعمار الإسباني لجنوب المغرب.

أما على مستوى العلاقات المغربية، فيري بياض أن في العودة إلى ثوابت الجغرافيا ومتغيرات التاريخ التي حكمت العناصر السابقة وحكمت في توجيه مسارها بيفسر كيف أن الندية كانت الميميم الأساسية الذي وسع اللجوء الفرنسي / الإسباني في المغرب، سواء قبل فترة الاستعمار أو خلالها أو بعدها. ففي السابق، يقول بياض، تحت الرعاية البريطانية، واليوم تحت المظنار الأميركي، فرهان أن تطبق قدم الرئيس المنتخب في بل ونوع من الحساسية بينهما ما يتعلق المغرب لكسب حضور أقوى، بغض النظر عن القاطن في الموكلاو أو الإبلزي، أكان يمينيا أو يساريا، يعني مركزية المغرب في العلاقة الخارجية لكلا البلدين، بل ونوع من الحساسية بينهما ما يتعلق بالعلاقة معه. ألم يقل رئيس الحكومة الإسباني الأسبق خوسي ماريأ أنثار في مذكراته، كلما وصلت العلاقات المغربية الفرنسية أوجها تشعر كأننا بين تارين أو بين فكي كماشة.

ثم أعطي الأستاذ الطيب بياض الكلمة للأستاذ المحتفى به الدكتور فيكتور ليسكانو موراليس، الذي انطلق في محاضرته من اختيار منهجي يروم تفسر هذه العلاقات ومسار تطورها وفهم تعقيداتها المختلفة، انطلاقا من استحضار البعد الجغرافي وأهمية الجيوبوليتك في تفسير التاريخ، متقاطعا مع أطروحات كل من فرنان برودييل وإيب لاكوسيت في كتابيها حول البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني وجيوبوليتك البحر الأبيض المتوسط. واختار نظما استدلالية في رسم جغرافية هذا التشابك والتفاعل التاريخي، استهدا جبل طارق وسبتة ومليلية وجزر الكناري، قبل أن يسافر عبر الزمن لفهم التفاعلات الحاصلة بين شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال أفريقيا الغربي، مستحضراً تعقيدات العلاقة الدولية بين 1902 و 1912 في تحديد مسار الاستعماري الخاص بالمغرب.

لما كانت الجغرافيا مغرلاً أساسيا بالنسبة إلى الباحث في فهم الاهتمام الإسباني بالمغرب سواء في الشمال أو في الجنوب (جزر الكناري)، متوقفا عند دلالة أنهار الإمبراطوريات، خاصة الإسبانية منها، ومغزى هزائمها وإنسحابها من القارة الاميريكية، والسعي إلى إعادة التوقيع إقليميا على حساب الجار الجنوبي، مشيرا إلى تعقيدات ما بعد الانسحاب الإسباني من جنوب المغرب.